كُنّاشة: (٧)

دمستان في دليل الخليج

إبراهيم عليّ السّفسيف

موسوعة "دليل الخليج الفارسيّ وعمان ووسط الجزيرة العربية" المشتهر بـ"دليل الخليج" لـ جي جي لوريمر(١٨٧٠-١٩١٤م)، موسوعة أُعدّت بقرار من حكومة الهند البريطانيّة بهدف إصدار دليل يمكّن موظّفي الدولة ودبلوماسييها العاملين في منطقة الخليج الحصول على المعلومات المتعلّقة بعملهم في المنطقة من أجل تعزيز النفوذ البريطانيّ في وجه القوى الأوروبيّة الأخرى.

وفور الانتهاء منها تمّ تصنيفها كموسوعة سرّيّة وللعمل الرسميّ فقط منذ طباعتها لأوّل مرّة ١٩١٥م بمدينة كلكتا الهندية في ستّة مجلّدات حتّى سنة ١٩٧٠م حينما صُرّح بنشرها للعموم.

فقد كُلّف الموظّف لدى الخدمة المدنيّة الهنديّة -لوريمر- بالإشراف على فريق من موظّفي الحكومة الهنديّة لإعداد هذه الموسوعة في سنة ١٩٠٣م. حيث قسّم فريق عمله إلى قسمين:

الأوّل تاريخيّ: أُنجز سنة ١٩٠٨م، وتحدّث عن منطقة الخليج بشكل عامّ منذ سنة ١٥٠٧م ثمّ يتفرّع ليتطرّق لتاريخ كلّ منطقة على حدة، وأُلحق به أيضًا مجموعة من المعلومات النتعلّقة بالتجارة والوضع الصحيّ والزراعة والعلاقات السياسيّة مع المناطق الأخرى وغيرها.

والثاني جغرافيّ وإحصائيّ: أُنجز سنة ١٩١٥م، احتوى على معلومات هائلة تفيد الباحثين عن تاريخ المنطقة: المدن والقرى والمناطق والأسر والقبائل والمجموعات الدينيّة والعرقيّة وغيرها.

وقد لاحظ الباحث الأستاذ عباس المرشد -الذي اجتهد كثيرًا في استخلاص تاريخ البحرين من هذه الموسوعة، فأصدره في كتاب حمل عنوان "البحرين في دليل الخليج"(صدر عن: درا فراديس للنشر والتوزيع، ٢٠١١م)- لاحظ دقّة معرفة لوريمر بأحوال المناطق والقرى -بعضها لا وجود له الآن على الخريطة الجغرافيّة-؛ كونه توافر على إمكانات ووثائق لم تكن متاحة لغيره، إضافة إلى أنّه استعان بفريق عمل لجمع المعلومات عن هذه المناطق والقرى.

قرية "دمستان" من القرى التي أتى على ذكرها هذا الدليل، حيث كتب عنها ما يلي:

- الاسم: دمستان.

- الموقع: على بعد أربعة أميال وربع غرب الرفاع الغربيّ، وثلاثة أرباع الميل من الساحل الغربيّ.

- الطبيعة: بها (٢٠) كوخًا للبحارنة -البحارنة: مصطلح يُستخدم على طول الساحل الغربيّ للخليج كمرادف للمسلم الشيعيّ الذي تكون لغته الأمّ العربيّة- الذين يعملون بالزراعة وصيد اللؤلؤ.

الملاحظات: عدد الحمير (١٧)، والماشية (٥)، ويتراوح عدد النخيل ما بين (٢٥٠٠-٣٠٠٠) نخلة. (نقلًا عن المرشد، ص٣٣٣)

ويمكن أنْ يُضاف إلى هذه المعلومات، ما قد يُعمّم من معلومات مبثوثة في الكتاب عن الوضع الطبقيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ لفئة المزارعين وصيادي اللؤلؤ.

أقول:

١. رغم قلّة المعلومات المذكورة عن قرية دمستان في دليل الخليج -وهو أمر طبيعيّ-، إلّا أنّها بالنسبة للباحث التاريخيّ تمثّل كنزًا ثمينًا، يستطيع توظيفه في رسم صور متخيّلة للوضع الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ لهذه القرية ولأهلها -عامّتها وعلمائها ووجهائها- في تلك الفترة الزمنيّة.

وهو ما نؤمّله من المتصدّين لكتابة تاريخ القرية -والقرى بشكل عامّ-، فلا يُكتفى بنقل المعلومات والإحصاءات من المراجع والمصادر فقط -مع أهميّة ذلك-.

٢. كانت المعرفة الواقعيّة هي الأساس الذي يبني عليه المستعمِر تحركاته وتخطيطاته، للحدّ -بقدر الإمكان- من العشوائيّة والارتجال، مع الاستعداد لبذل الكثير من المال والجهد في سبيل الوصول إليها.

والمعرفة الواقعيّة هي ما يجب الاستناد إليه في تحرّكات وتخطيطات العاملين المخلصين للنهوض بواقع مجتمعاتهم على كافّة المستويات: الثقافيّة والدينيّة والاقتصاديّة والسياسيّة وغيرها، مع الاستعداد للبذل مالًا وجهدًا.

وبحسب عنوان الكُتيّب النهضويّ للمرجع الدينيّ الراحل السيّد محمّد الشيرازيّ -رحمه الله-: "أنفقوا لكي تتقدّموا".

أليس هذا مصداق لقول الأمير(عليه السلام): "يَا كُمَيْلُ مَا مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا وَأَنْتَ مُحْتَاجٌ فِيْهَا إِلَى مَعْرِفَةٍ"؟ (بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ: ٢١٢/٧٤)

الثلثاء: ٩ جمادى الأوّل ١٤٤٦هـ/ ١٢ نوفمبر ٢٠٢٤م.